حرية وجمهورية !

اتخذ مقعده في الدرجة الأولى من السيارة الحافلة العامة، ومكن لنفسه في الجلوس بأربع هزات من نصفه الأعلى ضغط بها على قاعدة الكرسي وظهره... ثم قطب من وجهه وشمخ بأنفه ووضع ساقًا على ساق... ثم أخذ نفسًا طويلاً من سيجارته ونفثه في الهواء بقوة... ثم جعل يتلفت إلى اليمين وإلى الشمال وإلى الخلف، ينظر إلى جميع الركاب من سيدات وسادة نظر التحدي والاستفزاز، يريد أن يجرؤ أحدهم فينبهه إلى أنه في الدرجة الأولى لا في الدرجة الثانية. وكان من المحتمل أن يصدر هذا التنبيه من أحد، لأن خشونة الشاب في لباسه وحركاته كانت تحمل على الظن بأنه أخطأ موضعه.

كان قد خرج لتوه من الورشة وعليه ثياب العمل: بنطلون من الكاكي الأصفر عليه بقع واسعة من الزيت والشحم، وقميص من التيل الأبيض فيه خطوط عريضة من الغبار والعرق، وحذاء من الجلد الغليظ لا تدري لطول عهده بالصبغ على أي لون كان... ولكن الناس كانوا مشغولين بهمومهم عنه لم يشأ أحد منهم أن يفجر القنبلة التي في صدره.

وقف المحصل أمامه وفي نظراته إليه بعض الشك والاستفهام، فصرخ الشاب في وجهه وقال:

بتبص لي كده ليه؟ أنا راكب بفلوسي.. دي حرية.. دي جمهورية.. خد...

وأخذ المحصل النقود وأعطاه التذكرة.

وأستطيع أن أقول للشاب الآن وأنا بعيد عن مرمى شفتيه ويديه: إن كل ما قلته يا أخي حق، ولكن الحرية لا تنافي الذوق، والجمهورية لا تعادي النظافة. وإن دينك وهو دين الجماعة قد سن للاجتماع سننا يجب أن تتبع، وفرض للسلوك آدابا يحق أن تراعي. وإذا كان من سنن الدين ألا تأكل الثوم ولا البصل ولا الكرات يوم الجمعة، وأن تغتسل وتتزين وتتعطر قبل الذهاب إلى الصلاة، فإن من سننه أيضاً ألا تركب مع الراكبين وأنت قذر الثياب، وألا تجلس مع الجالسين وأنت مريض البدن.